محاضرة الأدب الاسلامي

من كتاب الأمالي في الأدب الاسلامي للدكتورة
ابتسام مرهون الصفار

اغراض شعرية قديمة ومتطورة (الرثاء)

قسم اللغة العربية / المرحلة الثانية
كلية التربية القائم / جامعة الأنبار

٢ ـ الرثـاء

يعد الرثاء من الاغراض التقليدية في الشعر العربي لانه مرتبط بالنفس الانسانية والحقيقية الازلية التي تتجلى في ان نهاية كل كائن حي الى الموت والزوال مما جعل الشعراء يبكون على موتاهم او قتلاهم ويسجلون ذلك شعرا ، الا ان هذا البكاء فيه جانبان ، الاول تسجيل مشاعر الراثي واظهار لوعة حزنه وفجيعته والثاني بيان مكانة المرثي وتابينه اي ذكر خصال الخير التي عرف بها في زمانه ، من هنا صور الرثاء عناصر الخير والمثل الاعلى في المجتمع فهو مثل المديح ، الا انه يخص ممدوحا غائبا عن الوجود وهو المرثي . من هنا وجدنا الرثاء في العصر الاسلامي يصيبه تطور كبير في العنصرين اللذين يشكلان جوهر المرثية ، ففيما يخص العنصر الاول وهو اظهار اللوعة والحزن والفجيعة فاننا وجدناه يتطور تطورا كبيرا عند شعراء الدعوة الاسلامية اذ تختفي معالم اليأس والحزن القاتل الى وجهة اسلامية خاصة ظهر في رثاء الشهداء اذ يشير الشعراء الراثون الى ان هؤلاء الشهداء مافقدوا من الحياة الدنيا الا ليهنأوا بالحياة الآخرة حيث ثواب الله للمجاهدين والشهداء في الجنة ، ومع ان الحزن على فقد الاحبة عاطفة انسانية لاتختلف باختلاف العصور الا انها كادت ان تبهت في فجر الدعوة الاسلامية لتحل محلها صورة البشرى لتلقي الشهداء ثواب الله في الجنة ، وهذا يواكب طبيعة الدعوة التي اقتضت من المسلمين ان يصبروا ويجاهدوا في سبيل الله لايثبط عزائمهم موت عزيز او استشهاد قريب بل العكس من ذلك وجدناهم يتخذون من استشهاد المسلمين مادة ينطلقون منها لتثبيت نفوس المؤمنين على الايمان ، وتقوية عزائمهم مع اقترانه في بعض الاحيان بالحزن ـ حزن النفس الانسانية الطبيعي ـ فاذا اراد الشعراء بيان العنصر الثاني من عناصر المرثية وهو تعداد مناقب المرثي ومدحه بما عرف به في حياته وجدنا اثر الاسلام في هذه المناقب واضحا حين تقترن المناقب بسيرة المرثي الاسلامية وبقربه من النبي (ﷺ) وادائه واجب الشهادة والتزامه بمبادئ الدين الاسلامي الحنيف وتظهر هذه المعاني في مراثي كثير من شعراء المسلمين لقتلاهم ، فهذا حسان بن ثابت يرثي حمزة بن عبدالمطلب وقد قدمت ابنته تسأل عن قبره فيجيبها حسان بتأبين القتيل وذكر خصاله ، وتكون البداية اقرب الى مراثي الجاهليين في البيتين الاولين حين يصفه بانه سيد قومه ، شجاع مغوار في الحرب ، وكريم يستبشر وجهه للعطاء وهو فوق ذلك ثابت الجنان صابر في المعارك :

تســـائـــل عن قرم هجـــان سميـــدع
لـدى البـأس مغـوار الصبـاح حسـور[٤٨٤]

اخي ثقـــــة يهتز للعرف والنـــــدى
بعيـــد المـــدى في النـــائبـــات صبـور

واذا كان تعداد هـذه الصفـات على طريقـة عرب مـاقبل الاسلام فلأنهـا صفـات استمرت في العصر الاسلامي على انهـا مثل عليـا للرجولـة والبطولـة ، ومع ذلـك يتضح الاثر الاسـلامي في الابيات الاخرى التي تليها حين يذكر البنت المفجوعة بأبيها بان الاستشهاد في سبيل الله راحة ابدية في الجنة ، ويذكرها بصفات ابيها الاسلامية ويصفه بأنه كان وزير رسول الله وانه اجاب دعوة الرسول واجاب داعي اللـه في الجهـاد فلقي مـاكان يرتجيـه من شرف الاستشهـاد في سبيل الله والعقيدة :

فقلت لهـــا ان الشهـــادة راحـــة
ورضـــوان رب بـــأمـــام غفـــور

فـــان ابـــاك الخير حمـــزة فـــاعلمي
وزير رســـول اللـــه خير وزير

دعـــاه الـــه الخلـــق ذو العرش دعـــوة
الى جنـــة يرضى بهـــا ومزور

فـــذلـــك مـــاكنـــا نرجي ونرتجي
لحمـــزة يـــوم الحشر خير مصير

وبعد هذه الصفات الاسلامية التي يصف بها المرثي يعود الى اظهار حزنه والمه لفراقه ولكنه حزن مقترن بالاستشهاد والشهادة ، ومابعدها :

فـواللـه مـاانسـاك مـاهبت الصبـا
ولأبكين في محضري ومسيري

على أســد اللـه الـذي كان مـدرهـا
يـــذود عن الاســـلام كل كفـــور

(٤٨٤) العزم السيد المعظم ، الهجان الكريم النسب ، السميذع الشجاع .

الاليت شلـــــوى يـــــوم ذاك واضلعي

اقـــول وقـــــد اعلى النعي بهلكـــــه الى اضبـــــع ينهشنني ونســـــور(٤٨٥)

جـــزى اللـــــه خيرا من اخ ونصير(٤٨٦)

وفي قصيدة اخرى تنسب الى كعب بن مالك او عبدالله بن رواحة يذكر الشاعر حزنه ولوعته على فقد جعفر الشهيد ولكنه يسلي نفسه بالدعاء له بالجنة ، ويذكر المسلمين بوجوب الصبر لان الرسول (ﷺ) وهو اقرب الناس الى الشهيد صابر محتسب الاجر في فقده لعمه :

عليـــك ســـلام ربـــك في جنـــان

يخـــــالطهـــــا نعيم لايـــزول

الا يـــاهـــــاشم الاخيـــــار صبرا

فكل فعـــــالكم حسن جميـــل

رســـــول اللـــــه مصطبر كريم

بـــأمر اللـــه ينطـــق اذ يقـــول(٤٨٧)

ويقارن كعب بن مالك بين قتلى المشركين وقتلى المسلمين مقارنة قائمة على العقيدة الاسلامية فيقول بعد ان ذكر شماتة قريش بمقتل حمزة ويذكرهم بقتلاهم الذين قتلهم المسلمون ببدر يقارن بين قتلى الطرفين :

شتـــان من هـــو في جهنم ثـــاويـــا

ابـــدا ومن هـــو في الجنـــان مخلـــد(٤٨٨)

وتتكرر عناصر الرثاء الاسلامي في رثاء المسلمين للنبي (ﷺ) فقد ورد في معظم هذه المراثي ذكر صفات النبي الخلقية الزاكية وتأكيد حزن الشاعر والمه لفقد شخص الرسول (ﷺ) النبي الذي هدى الامة الى طريق الخير وعلمها الرسالة السماوية ، اما تسلية الشعراء انفسهم من الحزن

(٤٨٥) مدره : زعيم

(٤٨٦) ديوان حسان ١٠٥

(٤٨٧) الاصابة ٣٥٣/١ ـ الاستيعاب ٢٧٥/١ ، شعر الدعوة ٤٤٤ ديوان كعب .

(٤٨٨) ديوان كعب/١٩١ .

فانهم يذكرون ماأورده الله في كتابه الكريم من وجوب الموت ، وان لكل انسان اجل لايتقدم ولايتأخر ، ولكن فراق النبي (ﷺ) هو الذي يدعوهم الى البكاء وقد اشار احد الشعراء الى انه حين يبكي الرسول (ﷺ) ويتذكر مصيبة المسلمين بفقده يقول انا لله وانا اليه راجعون لان الله تعالى ذكر في كتابه المحكم «والذين اذا اصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون»

فلـــو رد ميت قتـــل نفس قتلتهـــا
ولكنـــه لايـــدفـــع المـــوت دافـــع
قـــاليت لا أثني على هلـــك هـــالـــك
من النـــاس مـــاوفى ثبير وفـــارع
ولكنني بـــاك عليـــه ومتبـــع
مصيبتـــه انى الى اللـــه راجـــع(٤٨٩)

اما حسان بن ثابت فانه يقف على الديار ويبكي الاثار ولكن اي ديار واي اثار اهي ديار الجاهلية واثار الحبيبة ، لا انها ديار الرسول (ﷺ) واثاره التي تظهر امام عيني الشاعر في كل درب وزاوية في المدينة المنورة التي صاحبهم فيها الرسول (ﷺ) فهو يقف بطيبة (المدينة) ويبكي الاثار ، ولكنه بكاء لايشبه بكاء شاعر ماقبل الاسلام ، والاثار لاتشبه اثار الاحبة الراحلين ، فهذه التي يبكيها حسان اثار باقية واضحة المعالم لاتزول - ولن تزول - انها اثار النبوة الباقية والمتمثلة بالمسجد الذي كان يجلس فيه النبي (ﷺ) واليوم يجلس فيه المسلمون تقرأ فيها ايات الذكر الحكيم باق واضح السمات وحجرات الرسول (ﷺ) باقية ورسومها تتجدد ولاتندثر :

بطيبـــة رسم للرســـول ومعهـــد
منير وقـــد تعفـــو الرســـول وتهـــد
ولاتمحي الايـــات في دار حرمـــة
بهـــا منبر الهـــادي الـــذي كان يصعـــد
وواضـــح آيـــات وبـــاقي معـــالم
وربـــع لـــه فيـــه مصلى ومسجـــد

(٤٨٩) الطبقات الكبرى ٣٢٠/٢ شعر الدوعة ٣٩٧ والشعر لعبدالله بن انيس

حجرات كان ينزل وسطهـــا

من اللـــه نـــور يستضـــاء ويـوقـــد

معـــالم لم تطمس على العهـــد ايهـــا

اتـــاهـــا البلى فـــالاى فيـــه تجـــدد

عرفت بهـــا رسم الرســـول وعهـــده

وقبرا بـــــه واراه في التراب ملحـــــد

ثم يقف متذكراً خلق النبي (ﷺ) وصفاته فيعددها واحدة بعد الاخرى بنفس اسلامي ورؤية اسلامية فهو لايرثيه لشخصه بقدر مايرثيه بانه نبي الامة هداها من الضلالة والجهل الى الهدى والنور والعقيدة وانه كان رؤوفا بالمسلمين كثير العفو عن الزلات عطوفا على صغيرهم وكبيرهم تحدوه رغبة كبيرة في اداء الرسالة السماوية وهداية قومه الى الحق ، وهو اطيب الناس خلقا واكرمهم اصلا وادبا لان الذي ادبه هو الله تعالى حين ارسل اليه النبوة . ويختم قصيدته بان يعزى نفسه ويؤملها باللقاء القريب مع النبي محمد في جنة الخلد (٤٩٠).

هذه القيم الاسلامية التي دخلت في الرثاء تستمر في قصائد الشعراء في عصر صدر الاسلام والاموي ولكن نسبة ورودها تختلف باختلاف الشاعر واختلاف المرثي فتتجلى هذه المعاني كلما كان المرثي مرتبطا بحدث سياسي او ديني متلازم اسمه مع قضية من القضايا وتظهر هذه المعاني اذا كان الشاعر متمثلا لها واعيا لاهميتها وتأثيرها في نفوس السامعين وتخف في بعض القصائد اذا كان الشاعر يرثي شخصاً قل ارتباطه بالعناصر التي كونت المجتمع العربي آنذاك مثلما نراه في رثاء متمم بن نويرة لاخيه مالك ، فالاخير قتل في حروب الردة خارجا على الدولة الاسلامية ولكن اخاه متما اسلم وحسن اسلامه ولم يرتد ولم يشارك في حروب الردة ومع ذلك فقد رثى اخاه اروع الرثاء خاصة قصيدته العينية التي مطلعها :

لعمري ومـــادهري بتـــأبين هـــالـــك

ولاجـزع ممـــا اصـــاب فـــاوجعـــا

(٤٩٠) ديوان حسان ص ٨٩ فما بعدها

واذا راجعنا رثاءه لاخيه وجدناه رثاء قائما على عناصر جاهلية اذ تتوالى صور التأبين وكأن صاحبها لم يعش في الاسلام ولم يسمع بمبادئه (٤٩١). وقد مر بنا تفصيل ذلك في تحليل قصيدته العينية .

وعلى اية حال فرثاء متمم بن نويرة لاخيه او شعره عموما لايقاس عليه لان العناصر الاسلامية والمثل الجديدة التي عرضناها من قبل استمرت في السيطرة على القصيدة الرثائية مع المثل العليا التي كانت في الجاهلية واقرها الاسلام مثل الشجاعة والكرم والحياء .

واذا راجعنا مراثي الشعراء للخلفاء الراشدين وجدناها تدور حول المعاني الاسلامية والصفات الخلقية التي يتسمون بها وتقترن بصفات اسلامية امر القرآن الكريم بالتحلي بها ، فالابيات المشهورة التي قيلت في رثاء الخليفة عمر بن الخطاب تؤبنه من خلال وصفه بالامام - امام المسلمين - وان الله هو الكفيل به وهو الذي سيجازيه خيرا عن سيرته في حياته الدنيا ، اما سيرته فهي العدل والبر والتقى ، والحكم بين الناس بسنة الدين القويم :

جزى الله خيرا من امير وباركت
يد الله في ذاك الاديم الممزق
قضيت امورا ثم غادرت بعدها
بوائق في اكمامها لم تمزق
وكنت تشوب العدل بالبر والتقى
وحكم صليت الدين غير مروق
امين النبي في وحيه وصفيه
كساه المليك جبة لم تمزق
من الدين والاسلام والعدل والتقى
وبابك من كل الفواحش مغلق (٤٩٢)

(٤٩١) راجع كتابنا مالك ومتمم بن تويرة اليربوعي (الدراسة) وراجع تحليل القصيدة في المبحث الثاني من هذا الكتاب .

(٤٩٢) البيان والتبين ٣٦٣/٣ ، الطبقات الكبرى ٣٣٣/٣ وشعر الدعوة : ٤٣١

اما الخليفة عثمان فقد اضيفت في رثائه معان اخرى غير التي ذكرت في رثاء الخليفة عمر (رض)، وهي وصفه بالشهيد، وذكر جهاده مع شيخوخته، ومدارسته لكتاب الله، يقول تميم بن مقبل :

لبيك بنو عثمان مادام جذمهم
عليه باصلال تعرى وتخشب

لبيكوا على خير البرية كلها
تخونه ريب من الدهر معطب

بدارسهم ام الكتاب ونفسه
تنازعه وثقى الحصال وينصب(٤٩٣)

ويرثي ابو الاسود الدؤلي الامام علي بن ابي طالب ويبكيه من خلال صفات الايمان والاسلام فهو امير المؤمنين واقرب الناس الى النبي (ﷺ) وحبيبه وصفيه، اقام الحق وكان يقرؤهم آيات القرآن ويصلي في الناس احسن الصلاة فيكون قدوة للمسلم التقي العادل وفوق هذا وذاك فان الخوارج قتلوه في شهر الصيام :

الا ياعين ويحك اسعدينا
الاتبكي امير المؤمنينا

وتبكي ام كلثوم عليه
بعبرتها وقد رأت اليقينا

الا قل للخوارج حيث كانوا
فلا قرت عيون الحاسدينا

في شهر الصيام فجعتمونا
بخير الناس طرا اجمعينا

وكنا قبل مقتله بخير
نرى مولى رسول الله فينا

(٤٩٣) ديوان تميم بن مقبل: ١١ فما بعدها

يقيم الحـــق لايرتـــاب فيـــه

وليس بكاتم علمـــا لـــديـــه ويعـــدل في العـــدى والاقربينـــا

ولا واللـــــه لانسى عليـــا ولم يخلـــق من المتكبرينـــا

وحسن صـــلاتـــه في الراكعينـــا (٤٩٤)

ونتخذ من استمرار الرثاء الجديدة مثالا او امثلة من اشعار الخوارج لانهم اوردوا هذه القيم في رثائهم لقتلاهم اكثر من اي فريق اخر ، فشعرهم يمثل حياتهم واندفاعهم في القتال والحرب وكأنهم نصبوا انفسهم للموت طلبا لرضى الله وثوابه وكأن كل من يقاتلونه خارج على الاسلام مقتاله ثواب والموت في حربه شهادة ، وهكذا نجد ابا بلال الخارجي يرثي جماعته من الخوارج الذين قتلوا في احدى المعارك فيذكر صفاتهم على عادة شعراء الرثاء وكلها صفات لاتتجاوز خلق العبادة والتقوى فيصفهم بأنهم كانوا يقضون ليلهم بالعبادة والصلاة واعينهم تسيل دموعا خشية الله :

الا في اللـــه لافي النـــاس ســـالت

بـــداود واخـــوتـــه الجـــذوع

مضـــوا قتـــلا وتمـــزيقـــا وصلبـــا

اذا مـــاالليـــل اظلم مـــابـــدوه تحـــوم عليهم خيـــل وقـــوع

فيسفر عنهم وهم ركـــــــوع

اطـــار الخـــوف نـــومهم فقـــامـــوا

واهـــل الامن في الـــدنيـــا هجـــوع

يعـــالـــون النحيب اليـــه شـــوقـــا

وان خفضـــوا فربهم سميـــع (٤٩٥)

(٤٩٤) ديوانه

(٤٩٥) شعر الخوارج : ١٢

ويذكر الحارث بن كعب الشني صاحبا له من الخوارج فيبكيه بكاءً حارا ثم يذكر خصاله بانه كان شجاعا لايخاف الا الله تعالى ، لذلك تراه مجاهدا في سبيل اعلاء الحق في الوقت الذي تخاذل فيه غيره ورضي بحكم الجور والظلم :

ليهـات قـد ابلى عظـامي وشفهـا

واسهر ليلي ذكر عـون بن احمر

فتى كان لايخشى سـوى اللـه وحـده

ويطمـع في معروفـه كل مقتر

يجـاهـد في اللـه ابنُ احمـد صـادقـا

اذا مـا ارتضى بـالجـور كل مقصر(٤٩٦)

وتتكرر هذه المراثي في قتلى الخوارج ، ونجد مثيلا لها في رثاء الشعراء للحسين وانصاره اذ اوردوا في قصائدهم كل القيم الاسلامية التي تقال في ميدان الشهادة والجهاد الا انها اتسمت فضلا عما ذكرناه بسمة الحزن العميق تارة ، ولوعة الثأر او تأمل من يقوم بالمطالبة بحق آل البيت تارة اخرى وهذه سمةٌ ميزتهم عن رثاء شعر الخوارج الذين اختفت من اشعارهم هذه السمة وحلت مكانها الرغبة في تتبع طريق المرثي مما سنراه في تحليلنا لاحدى قصائدهم .

شعر الخوارج 2